

من يخاف عليه أن يتوقف عن الكتابة

التونسي محمد عيسى المؤدب: تعرضت للتكفير بسبب كتاباتي عن اليهود



يتعرض الكثير من الكتاب إلى هجمات من المتعصبين كلما كتبوا عن الأقليات المنسية في بلدانهم، وكلما أعادوا استنطاق زوايا مجهولة من التاريخ في محاولة لفهم الحقائق ورصدها وإعادة تصحيح التاريخ الجمعي. وهذا لا يتم بالشكل المطلوب إلا عبر الرواية، حيث يمكن لهذا الجنس الأدبي أن يكون جامعا ويحقق المعادلة بين المتعة الجمالية والفكرية والتاريخ والنقد والمساءلة. وهذا ما سترناه مع الروائي التونسي محمد عيسى المؤدب.



صغير الحيدري
صحافي تونسي

تونس - كثيرا ما أثار موضوع الأقليات الدينية في تونس جدلا واسعا ولاسيما أن السلطات حاولت في وقت سابق تعزيز حقوق الأقليات عموما بتكريس المزيد من المساواة مع بقية شرائح المجتمع، لكن ذلك لم يتحقق، بل بالعكس باتت هذه الأقليات مهددة أكثر من أي وقت مضى، وحسب ما تؤكد تقارير حقوقية فإن الحريات الفردية تشهد تراجعاً لافتاً.

ويبدو أن عبارات التكفير والتهديد والوعيد التي يطلقها "حراس الدين" على هذه الأقليات قد طالت كذلك المجال الأدبي مثل غيره من المجالات، ولاسيما عندما يسبر كاتب ما أغوار التاريخ ليروي قصصا تصور واقعا فسياسيا ليلاهد.

وفي هذا الحوار الذي أجرته "العرب" معه، يشهد الروائي التونسي، محمد عيسى المؤدب، على أنه تعرض

للتكفير مجرد تطرقه إلى تاريخ "يهود اليوم؟ وخاصة وصول روايتك إلى القائمة الطويلة للروايات المرشحة للفوز بجائزة؟

● **العرب:** كيف تقم أهمية جائزة البوكر اليوم؟ وخاصة وصول روايتك إلى القائمة الطويلة للروايات المرشحة للفوز بجائزة؟

● **محمد عيسى المؤدب:** جائزة البوكر من أشهر الجوائز العالمية، فقد نشط المشهد الروائي العربي إبداعا ونشرا وترجمة ونقدا، وهذا مهم للإبداع العربي حتى يصل إلى القارئ الآخر الذي يجهل الكثير من الأعمال التي لم تحظ بالترجمة أو النقد أو بالتقدير الإعلامي الواسع. البوكر مهم حقيقة لأي كاتب عربي حتى يخرج من العزلة والنسيان.

وصول رواية "حمام الذهب" إلى القائمة الطويلة في تجربتي الأولى مع دار مسكيلياني كان مهماً ومفيداً جداً لتجربتي في الكتابة وللرواية التي عالجت موضوعاً إنسانياً حارقاً متصلاً بالهوية التونسية ويهود القرائة. ولعل الكثيرين يعرفون قيمة وصول أي رواية إلى قائمة من قائمات البوكر، نظراً إلى المنافسة الشرسية بين ما يقارب 150 رواية تعد أجود ما نشر عربياً.

التعصب ضد التنوير

● **العرب:** في أحد تصريحاتك تحدثت عن تعرضك للتكفير في تونس بسبب ما عالجه رواية "حمام الذهب" وبالضبط: تاريخ اليهود، كيف تعرضت لذلك، وهل واجهت تهديدات؟

● **محمد عيسى المؤدب:** نعم تعرضت إلى ذلك في خيمة الكتاب بشارع الحبيب بورقيبة بتونس العاصمة إذ كُفرتني أحد "المحسوبين على الثقافة"، وصرح في تدخله أثناء تقديم رواية حمام الذهب أنني كافر لأنني تعاطفت مع يهود القرائة في الرواية، وسردت تفاصيل المآزر التي تعرضوا لها في حربي 48 والأيام الستة. وعندما سألتته إن كان قد قرأ الرواية رد غاضبا: وكيف لي أن أقرأ كتابا كافرا؟

التهديدات كانت من خلال التعليقات عن الرواية في مواقع التواصل الاجتماعي والرسائل المشفرة والغاضبة من تناول موضوع يهود القرائة. ولا أحد من هؤلاء قرأ الرواية، وهكذا نعرف إلى أي نقطة من التخلف والجهل

● **محمد عيسى المؤدب:** صحيح، منذ 2015 غابت تونس عن جائزة البوكر تماما إلى حدود دورة 2020 التي وصلت فيها

● **العرب:** لماذا براك لم تنجح تونس حتى الآن في درء التعصب وعدم قبول الاختلاف؟ هل الخلل في الدولة أم في الطبقة السياسية؟ أين يكمن الخلل بالضبط؟

● **محمد عيسى المؤدب:** الخلل حقيقة في الدولة وفي جرة القرار السياسي وتجرس القضاء. أقول ذلك لأن أهم الملفات التي تشغل التونسيين لم تعالج بوضوح وحسم. وأعني بالضبط ملفات الفساد والتهميش والتهميش الشباب والاعتقالات السياسية وتفسير الشباب والجهاز السري للإسلام السياسي. فعدم الحسم في هذه الملفات غذى التعصب وعدم قبول الآخر وخاصة

الكتابة مغامرة خطيرة

● **العرب:** هل هذا النقاش واقعي، يعني حدث فعلا بين برقية ومانويل قريقريري؟

● **محمد عيسى المؤدب:** النقاش حدث فعلا بين الرجلين في التواريخ التي ذكرت في الرواية غير أن النقاش الذي تم هو طبعا رواية لشهادات وتخييل لدواعي فنية ومضمونية اشغلت عليها الرواية في كامل فصولها. فالرجلان يتجاوزان في كل شيء، في تصديهما للفاشية والتطرف والكراهية والعنف وتبنيهما للتعايش بين الأديان.

● **العرب:** تتطالع رواية "حذاء إسباني" و"جهاد ناعم" في التطرق لمسألة الهجرة في حقبات مختلفة، مرة من أوروبا؛ عن الفارين من دكتاتورية فرانكو، ومرة من تونس إلى أوروبا، هل الهجرة باتت علامة حقيقية عن معاناة عالم الإنسان في مختلف الأزمنة؟

● **محمد عيسى المؤدب:** تلك هي تأثيرات الهجرة على الشعوب وخاصة الهجرة السرية المقترنة بالمناجزة بالأثار وتفسير الشباب كما عالجت ذلك في رواية "جهاد ناعم". والمقترنة بالهروب من الحروب والدكتاتوريات كما ورد

ذلك في رواية حذاء إسباني مع 4000 من البحارة الإسبان والمنديين سنة 1939. الموقع الجغرافي لتونس جعلها كل الحروب والتمردات التي تعرضت لها الإنسانية كانت موضع سلاذ للمنديين والأجانب وهو ملف كبير سكت عنه التاريخ التونسي الرسمي للأسف بتفاصيله ومحنه وتأثيراته أيضا.

● **العرب:** كيف تحولت أوروبا إلى مصنع للإرهاب والتطرف خاصة أن الغرب قطع أشواطاً هامة على مستوى الحضارة والثقافة وغير ذلك؟

● **محمد عيسى المؤدب:** أوروبا ليست حضارة وثقافة فقط هي أيضا بارونات فساد وعصابات تهريب ومافيا وجريمة. في الواقع الرأسمالية المتوحشة هناك جعلت من العالم المتناقضة كما أنتجت الإنسان الجشع، انظروا مثلا إلى ملف النفايات الأخير في تونس وكيف تصدّر إيطاليا الموت إلى أرضنا وأطفالنا، وملف النفايات الخطير ليس الأول والأخير. هناك ملفات أخرى خطيرة منها تهريب الآثار والمتاجرة بالشباب، ورواية "جهاد ناعم" عالجت هذا الملف بدقة.

هكذا هي الرواية الحديثة إذن، فهي لم تعد مكتفية بالإمتاع السردية وإنما أضحت منتجاً للمعرفة ومدونة للتاريخ الإنساني بكل تناقضاته.

أن كل الظروف مناسبة لذلك سياسياً واجتماعياً واقتصادياً. البلد على شفا حفرة من الانهيار الاقتصادي والاجتماعي والسقوط الأخلاقي المدوي وكل ذلك ناجم عن مرهقة سياسية طغت على كل من وصل إلى الحكم منذ 14 يناير 2011.

إن ما يحدث فعلا في مجلس النواب يعد مهزلة حقيقية وخيانة للشعب يحلم بالحرية والأمن والشغل والكرامة وخيانة أكبر للشباب التونسي الذي صنع الثورة وأمن بها لكن شيوخ الفتنه أجهضوا هذا الحلم الجميل. وأقول بشكل واضح إن هناك خيانات كبرى في تونس ضد الثورة وضد الشعب وماتاتها لوبيات الفساد السياسي والاقتصادي. وعلى الدولة التونسية الحسم في أمر هذه اللوبيات لتتجاوز الخلل.

الأدب والتاريخ

● **العرب:** أنت كما غيرك تعود إلى التاريخ من أجل سرد قصص وروايات شيقة هل تجد صعوبة في إيجاد مصادر

الحقبة التي تتناولها أو الشخصيات، خاصة وأن في رواية حذاء إسباني، نقرأ عن ضابط إسباني يستقر في قليببة ويستثمر هناك ويلتقي الزعيم الحبيب بورقيبة ويصور بينهما نقاش؟

● **محمد عيسى المؤدب:** في الحقيقة فوجئت بالفكر الغربي للمدونة التاريخية التونسية. لذلك اعتبرت أن تاريخنا في أغلبه انتقائي ومزيف. في رواية "حذاء إسباني" مثلا التجأت إلى باحثين ومؤرخين إسبان يعرفون تاريخنا أكثر منا للأسف وأخص بالذكر الدكتور فكتور فرنانديز دياز من جامعة فالنسيا وكذلك الكاتب والباحث برنابو لوبيز غارسيا من جامعة مدريد.

● **العرب:** لماذا براك لم تنجح تونس حتى الآن في درء التعصب وعدم قبول الاختلاف؟ هل الخلل في الدولة أم في الطبقة السياسية؟ أين يكمن الخلل بالضبط؟

● **محمد عيسى المؤدب:** الخلل حقيقة في الدولة وفي جرة القرار السياسي وتجرس القضاء. أقول ذلك لأن أهم الملفات التي تشغل التونسيين لم تعالج بوضوح وحسم. وأعني بالضبط ملفات الفساد والتهميش والتهميش الشباب والاعتقالات السياسية وتفسير الشباب والجهاز السري للإسلام السياسي. فعدم الحسم في هذه الملفات غذى التعصب وعدم قبول الآخر وخاصة

يطلعوا على تاريخ هذا البلد وكيف ساهمت هذه الأقليات في التسيح الاجتماعي العام للتونسيين وتنشيط الحركة الاقتصادية وتطوير المهنة وغيرها من النضالات المسكوت عنها في التاريخ التونسي. هذا التاريخ حسب رأي أغلبية مزيف لأنه انتقائي وانتهازي وسياسوي.

في الواقع بنيت مشروع الروائي: الإنسان والمكان على هذه الحقيقة المرعبة وأنا أعود إلى الوقائع واستمع إلى شهادات. لا يرتبط الأمر فقط باليهود والمسيحيين، يرتبط بالأمازيغ والأفارقة والاندلسيين أيضا. لو تلقي نظرة بسيطة على المعمار في المدينة العتيقة بتونس العاصمة وحلق الوادي والمرسى والزهراء ثم بنزرت وقلبية وغيرها من المدن التونسية شمالا وجنوبا سلتحظ هذا المزيج الثقافي والحضاري الإنساني الذي صنع الهوية التونسية.

واعتقد أن القلة الحاكمة والمتطرفة في تونس ستتناكل تدريجياً لأن خطابها فوضوي وهستيري، وهي دمي دموية تحركها أجندات سياسية أثبت الواقع فشلها في إدارة الشأن التونسي العام لعشر سنوات.

● **العرب:** كيف ترى تداعيات ذلك على مستقبل البلاد والديمقراطية والتعددية؟

● **محمد عيسى المؤدب:** لننقذ أولاً ما ثورة 14 يناير ليست هي السبب في ما نعيشه من فوضى وتهديدات. السبب الحقيقي هو هذا التطرف والحقد الأعمى من الذين اعتبروا تونس غنيمة كما اعتبروا الجزء الكبير من التونسيين مارقين وكفاراً وهي مصطلحات الجهل والتخلف والخرافة. وفي الحقيقة تونس لن تعود إلى الدكتاتورية أو الإله الواحد ولن تخشى للمتطرفين والفاستدين. ستتصنر الهوية أو ما أسميها الشخصية التونسية المعتدلة والمنفتحة على الآخر وستلعب المرآة التونسية دوراً عظيماً في هذا المنعرج الخطير الذي تعرفه تونس في السنوات الأخيرة.

● **العرب:** لماذا براك لم تنجح تونس حتى الآن في درء التعصب وعدم قبول الاختلاف؟ هل الخلل في الدولة أم في الطبقة السياسية؟ أين يكمن الخلل بالضبط؟

● **محمد عيسى المؤدب:** الخلل حقيقة في الدولة وفي جرة القرار السياسي وتجرس القضاء. أقول ذلك لأن أهم الملفات التي تشغل التونسيين لم تعالج بوضوح وحسم. وأعني بالضبط ملفات الفساد والتهميش والتهميش الشباب والاعتقالات السياسية وتفسير الشباب والجهاز السري للإسلام السياسي. فعدم الحسم في هذه الملفات غذى التعصب وعدم قبول الآخر وخاصة

وصلنا في تونس وفي الكثير من البلدان العربية.

● **العرب:** كيف كان أثر ذلك عليك خاصة وأنت لا تزال تبحث وتسير أغوار التاريخ لكي تروي قصصاً شيقة؟

● **محمد عيسى المؤدب:** حقيقة لم أتأثر لأنني تعودت على المحاكمات والتكفير والتخوين وهي التهم الجاهزة لكل كاتب رام التعسف في المواضيع الحارقة أو الممنوعة أو المحرمة كما يعتقد حراس الجهل والتطرف والكراهية والحقد. أنا على تمام الثقة بأن من يخاف عليه أن يتوقف عن محمود العواقب ما يمنا محاصرين بقتلة العقل وصناع التوابيت.

● **العرب:** اليوم، الكل يشيد بما حققته تونس منذ ثورة 14 يناير سواء داخليا أو خارجيا، لكن هذه الإنشادات لا تحجب وجود تهديدات للحريات، وخاصة لدى الأقليات الدينية، كيف تقرأ ذلك؟

● **محمد عيسى المؤدب:** نعم، هناك إنشادات عالمية بتونس بعد ثورة 14 يناير لكن هذه الإنشادات لا تحجب ما تعرض له محمد الطالب ويوسف الصديق وألفه يوسف وغيرهم، من هجمات بشعة وحاقدة دون اطلاع على حقيقة أفكارهم وأطروحاتهم.

هناك كراهية وحقد أيضا على الفقه، على السينما والمسرح والفن التشكيلي والكتاب والجمد لله إن هذه الممارسات صادرة عن قلة متطرقة شبيهة بالذئاب المنفردة التي تحبب وتهاجم كل شيء جميل في هذا البلد.

نفس هذه القلة تهدد حرية المرآة، هذه الحريات التي تحققت بنضالات متعاقبة، حملت معها هوية شعب، هوية

الانتفاخ والحوار والتعايش مع الثقافات والأديان. عاد البعض أيضا إلى حوارات جوفاء حول الأقليات الدينية في تونس وتهديد وجودهم كتونسيين من جوهر الهوية. هم لم

